أثر التربية النبوية في تقويم المواهب الفكرية ومناحي تنميتها

أ. قبلي بن هني
قسم العلوم الاسلامية جامعة عمار ثليجي
الأغواط - الجزائر

المقدمة:

الحمد لله وكفى وصلى الله على نبيه المصطفى وآله وصحبه المستكملين الشرف وسلم تسليما مزيدا على من اتبع آثارهم واقتفى وبعد: فقد أرسل الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ومربيا للناس وداهم على الخير، وجعله محل قدوة لأتباعه مؤيدا بالوحي في كل اجتهاداته، حتى كمل به كل نفع وتمكّن بسيرته كل صلاح واقع ومتوقع، وقد فتح لأصحابه عيون البصيرة وأصّل لهم قواعد النظر والتفكر، كما جاء في حديث تأبير النخل لما قال لأصحابه وقد نهاهم قبل عنه: " أنتم أعلم بأمور دنياكم"[1] وغيره من الأحاديث النبوية التي تعد تأسيسا للتربية العقلية الهادفة. فكانت مثل هذه النصوص النبوية أساسَ صنائع التميُّز لدى أهل الإسلام، فحلقوا بعقولهم في سماء المعرفة حتى خضعت لهم المدنية ورقت عندهم الصور الحضارية، وتميزوا عن بني عصرهم في مقومات الوجود ماديا وروحيا، ولعل الناظر يتساءل عن سر صناعة التميز وتنميته بتلك المهارات والقدرات وبروز تلك المواهب الخالدات. ومرده في الجملة إلى تحصيل الكفاءات الفكرية واستغلالها في محل التفوق كما تزاوج في منظومتهم ومناهجهم العلمُ والعملُ تحت لواء القيم والسؤدد بالدين والاعتزاز به، ولا يشك فيه من له أدنى مسكة عقل لبديهيته لأنه التأييد الرباني المندرج تحت قاعدة "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"، وهو قول الحكيم وفيه حكمة العليم سبحانه.

والمتأمل في تاريخ الدعوة الإسلامية في بدايتها الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يلاحظ اهتماما نبويا بتوظيف المواهب والقدرات في مكانها الصحيح، بعد امتلاك القدرة على استيعابها وامتصاصها إلى محيط الدعوة الرحب وإطارها الفسيح، مهما كان جنوح هذه الموهبة أو شراستها أو حتى تفوقها وتفردها النادر، فكان الداعي الأول محمد صلى الله عليه وسلم يضبط توجيه الموهبة مع إضفاء البعد العقدي الإيماني على حركتها؛ حتى يستفيد المجتمع المسلم من موهبته، وليس من وجوده في الإطار الإسلامي فقط، مع إعطاء صاحب الموهبة أبعادا رسالية في إبرازه لموهبته في خدمة الإسلام ونصرته؛ فكانت المواهب تجد متنفسا صحيا لها في ظلال الإسلام، فتنتج إبداعا قل نظيره[2].

وإنه لا يزال في ديننا فسحة للباحثين عن سبل العودة للمجد والعزة المنشودة ضمن المسالك الفكرية المختلفة، إذا ما سلكوا سبل القوامة ونهلوا من منبع الريادة، وتخلوا عن الرضا بما هو موجود اكتفاء به، بل فزعوا إلى بلغة الكمال ومندوحة الطموح، كما أن المرء ابن بيئته إذ لا بد له من المواكبة في سعي حثيث مستلهما مما صلح ومجتنبا التقليد والإمعة لباعث الامتياز، مع إعمال الفكر وتخصيب البصيرة بتفاؤل وانشراح واقتناص للفرص في فضاء المستجدات وتعميق النظر بعيد الغور في المآلات اعتبارا بما بين أيدينا من المعطيات.

هذا ولصناعة التميز المنتظم وفق نمط محدد الأهداف بتقدير المواهب التي تصوغ الشخصية الفذة في بوتقة الجامعة الإسلامية (أعني بها جميع الأمة) بعيدا عن تأثير الغرائز والهواجس التي لا تخضع لمعايير الانتفاع بالموهبة. ومن منظور تلك المعايير التي تقيّم القدرات الفكرية والتصورية والإمكانات الميدانية العملية من خلال السنة النبوية (ومن أمثلته في العهد النبوي: صنع المنبر وجواب بريرة في الإفك وتفوق ابن عمر في حديث النخلة...)[3]، حيث تزكوا النفوس وتصفوا من الأخلاط والرواسب التي تفرزها بعض العوامل الدخيلة والملجئة أحيانا. فتُصرف العناية حينئذ إلى تحقيق مناط الموهبة وتنقيح ملابساتها وتخريجها على أكمل الوجوه وفقا لآليات التمكين المرسومة، مع مراعاة مبدأ النقد تقريرا وتحريرا في قالب

حواري تشاوري، خدمة للجامعة الإسلامية أفرادا وجماعة حتى تضحى الأمة في أبهى حلة ترصّعها تلك الإبداعات والمهارات النامية.

وعليه فإنا نروم بذلك كله النتاج الصالح المستمد من السنة المشرفة في إبراز المواهب والامتيازات المنطوية تحت فضاء الإبداع وصنائع التفوق انطلاقا من النواة الأولى وانتهاء بقبة الثريا.

ومن خلال هذه التوطئة قررت أن تكون مداخلتي تحت عنوان: "**أثر التربية النبوية في تقويم المواهب الفكرية**[4] **ومناحي تنميتها**" استنطاقا للسنة النبوية وارتشافا من معين السلف الصالح واستنجادا بمقاصد الشريعة وبصائر العلماء الناصحين والأئمة العاملين.

تعريف الموهبة في اللغة:

الموهبة: اسم مفرد وأصل مادته من (و هـ ب): بمعنى وهب يهب هبة والجمع هبات(وهي الهدية والمنحة والعطية) والرجل واهب والمرأة واهبة، ومن وُهب شيئا فهو موهوب له والمنحة تدعى الموهبة بِكَسْر الْهَاء والجمع مواهب[5].

كما في الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي..."الحديث متفق عليه[6]، ومن شعر العرب قول القائل:

إِنَّ الإِلهَ حَباكَ الْمُلْكَ مَوْهِبَةً ... مِنْهُ وَلَنْ يَسْتَرِدَّ اللّهُ ما وَهَبا[7]

وقال آخر:

يا خيرَ موهبةٍ تزكو النفوسُ بها ... بعداً فانك عندي شرُّ موهوب[8]

والمَوْهَبَةُ بِفتح الْهَاء وكسرها: غدير وجمعُه مواهِب[9]، وهي: النُّقرة في الجبلِ يَسْتَنقع فيها الماءُ، وقال:

ولَفوكِ أَشْهَى لو يَحِلُّ لَنا ... من ماءِ مَوْهَبَةٍ على شَهْد[10]

وقد عدّها العلامة السيوطي من العلوم التي يحتاجها المفسر وعدها خمسة عشر علما جعل آخرها الموهبة فقال: "الخامس عشر علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بحديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم"[11]

وقد لا يفوتني أن أنبه على ما بين الموهبة والعبقرية[12] والنبوغ من الترادف، وكذا منها قولك: الحصيف – الفطن – النبيه – الفهِم – الذكي – المحنك كلها بمعنى الموهوب، فهي متداخلة المعاني حيث تطلق من باب الترادف لكن لا على سبيل الإطلاق فإن بينها تفاوت في الدلالة على المعاني لاختصاص كل مفرد بمعناه[13]. وقد نستأنس بمصطلحي "البطولة" و"النجومية" ليأخذا معنى الموهبة وقد تنحصر في عالم الفن والسينما لدى مستعمليهما وخاصة في الأساليب الإعلامية والاشهارية[14] بغض النظر عن صلاحيتها شرعا من عدمها.

– ومعناها في الاصطلاح المعاصر إذا أطلق انصرف إليه، فهي: استعداد فِطْرِيّ لدى المرء للبراعة في فنٍّ أو نحوه[15]. كمن له صوت جميل في تلاوة القرآن أو يحسن نَظْمُ الشِّعرِ أو يصلح آلات وهو عصامي في معرفته ونحوها وقد يكون الرجل متعدِّد المواهب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. حيث يبسط الله تعالى المعارف في عقل[16] الموهوب ويذلل لها ملابسات صنعتها فكريا وعمليا وميدانيا[17].

منزلة الموهبة في الفكر الإسلامي وأبعادها في التربية العقلية:

على غرار ما سلف بيانه يعد في حقيقته الحث إلى الدعوة إلى إعمال العقل والتدبر وحسن التفكير لأنه مما يقوي الإدراك الذي ينمي الموهبة ويغذيها: فمنه قوله تعالى: {**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** }[الواقعة: 75–76] فإنه يدعو ضمنيا إلى معرفة هذه المواقع التي ليست مشاهدة له إلا بالبحث العلمي الدقيق، وقد حصل منها شيء اختص به علماء الفلك والأرصاد الجوية..

ومنه بخلافه قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**} [الحج: 5] ففيه تنبيه الإنسان إلى أصل خلقته وأطوار نموه وحال نهايته وهو أمر مشاهد وواقع. ومثلت بالآية على بيان المقصود من التفكير في نمو الإنسان وشقه الأطوار خلال العمر المقدر له. "وتتبين أهمية دراسة النمو عند التربويين بوجه خاص في مساعدتهم على التعرف على مكونات الشخصية عند طلابهم ومطالب النمو واحتياجاته التي تعد عاملا مؤثراً في توجيه سلوكياتهم فضلا عن معرفة ما لديهم من القدرات العقلية التي تتباين عند الطلاب وهو ما يعرف عند علم التربية والدراسات النفسية بـ"الفروق الفردية" وأثر ذلك في التعليم الفعال وفي التوجيه الطلابي والإشراف الاجتماعي والإرشاد التعليمي وهي جوانب أساسية في حياة الطالب بوجه خاص"[18].

ولقد دعت الشريعة إلى التنمية الفكرية والتربية العقلية حفاظا منها على مقصودها من حفظ النظام الذي يدور أساسا على تحصيل لمنافع ودرء المفاسد، فكان من ضرورياتها حفظ العقل الذي هو مستقر المواهب وصناعة التميز لا على أساس النظام الكوني وسنن الغرائز المجردة. وأما الأوهام والخرافات والتخيلات والوساوس كلها تعود على العقل بالضرر مما يجلب له الفساد في العمل المنوط به فيختل الإدراك وتتغير حينها الحقائق في موازين العقل المشوب بها. قال العلامة ابن عاشور التونسي: "إصلاح عقل الإنسان هو إصلاح جميع خصاله ويجيء بعده الاشتغال بإصلاح أعماله وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الإسلامي" والدليل عليه في الحديث: آمن بالله ثم استقم"[19] وإن "حفظ الشريعة للعقل ليس منحصرًا في تحريم المسكرات والمعاقبة عليها، فكم من عقول ضائعة وهي لم تر و لم تعرف مسكرًا قط. ولكن أسكرها الجهل والخمول والتعطيل، والتقليد. وعلى هذا، فإن

إعمال العقل وفسح المجال له، ليس فحسب مساعدًا على تقدير المصالح وحفظها، بل هو نفسه مصلحة من المصالح الضرورية. لأن في إعماله حفظًا له. وحفظه هو أحد الضروريات المتفق عليها"[20]، والغرض منه هو حفظ العقل وتنزيهه عن المضرات لا تقديسه ورفع شأنه حتى يعود على الشرع بالإبطال. وإن من الملاحظ في عصر النبوة فقد "كانت تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه شاملة، لأنها مستمدة من القرآن الكريم الذي خاطب الإنسان ككل، يتكون من الروح والجسد والعقل، فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر والتأمل والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله وهذا مطلب قرآني. ولذلك وضع القرآن الكريم منهجًا لتربية العقل، سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه ومن أهم نقاط هذا المنهج:

1- تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد.

2- إلزام العقل بالتحري والتثبت.

3- دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون.

4- دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله.

5- دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول"[21].

والناظر في القرآن الكريم يجد من هدايته الدعوة إلى التفكر والتدبر وإعمال الفكر، للوصول إلى حقيقة الوجود وحتمية إفراد الله تعالى بالعبودية والذل والخضوع له وحده جلا وعلا مع المحبة والشوق إليه سبحانه، ومن ذلك ما ورد من القصص القرآني في أخبار الأنبياء والمرسلين والصالحين وغيرهم، مثل ما جاء في حق النبي إبراهيم عليه السلام قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}**[الأنبياء: 51] فقد هداه الله تعالى وأنار بصيرته وهيئ له السبيل حتى أوحى إليه بهدم الأصنام إلا كبيرهم ليتخذ من ذلك الحجة على أن الأصنام التي يعبدونها لا تتكلم فضلا على أنه تفعل شيئا كالهدم مثلا،

فخاطبهم بقول: {**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (۞) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**}[الأنبياء: 66-67] فخاطب مستقر مواهبهم التي بها عبدوا ما نحتوه فقال: { **أَفَلَا تَعْقِلُونَ**} ولكن العناد والجحود حال دونها.

ومن ذلك أيضا قصة ابنيْ آدم لما قتل أحدهما أخاها فلم يهتد بعقله ما يفعل بجثة أخيه فقص الله الخبر فقال: {**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**} [المائدة: 31]

ولقد كانت هذه التربية العقلية والإرشادات الفكرية في الصحابة عليهم سحائب الرضا جلية ومن أمثلة ذلك:

1- **صنع المنبر**: حيث روى البخاري في صحيحه عن سهل رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى امرأة من المهاجرين، وكان لها غلام نجار، قال لها: مري عبدك فليعمل لنا أعواد المنبر، فأمرت عبدها فذهب فقطع من الطرفاء، فصنع له منبرا، فلما قضاه، أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنه قد قضاه، قال صلى الله عليه وسلم: أرسلي به إلي، فجاءوا به، فاحتمله النبي صلى الله عليه وسلم، فوضعه حيث ترون[22] وفي رواية عنده في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم: كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكن. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها [23]. والشاهد منه: أنها لما رأت النبي صلى الله عليه وسلم يمتطي الجذع أصابت فكرة صنع المنبر[24] واهتدى الغلام النجار إلى جعله من أعواد الطرفاء ليكون متينا وجعله ثلاثة درجات كما صرح به مسلم في روايته[25]. واتخاذ المنبر لكونه أبلغ في مشاهدة الخطيب والسماع منه[26].

2- **جواب بريرة في الإفك**: فيما ترويه عائشة لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وقال (أي بريرة هل رأيت شيء يريبك). قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.." الحديث[27] وفيه من الدليل على قوة التربية العقلية التي بلغها الإماء في عهده صلى الله عليه وسلم فضلا عن الرجال، لتقول أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت من الغافلات المؤمنات، بأسلوب يدل على قوة الفكر وحدة النباهة.

3- **تفوق ابن عمر بن الخطاب في تحصيل الجواب في حديث السؤال عن النخلة**: الذي يرويه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي" فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال: "هي النخلة" قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: "لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا"[28]. وفيه من قوة دالة على موهبة الفكر حسن استعمال العقل في فقه عبد الله بن عمر رضي الله عنه وصلابة عقله ودقة فكره في عرض الجواب وسرعته على ما جال في خالدته.

4- **عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال**: دخل النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: "ما هذا الحبل؟" قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا حلوه ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد"[29] "فهذه سنته صلى الله عليه وسلم ليس فيها غلو ولا إجحاف في حق النفس وإعطاء لكل شيء حقه. وتوسط في الأمور. ولم يقر صلى الله عليه وسلم من يشق على نفسه بالعبادة ويتجاوز الاعتدال"[30]. فهي موهبة دلت على حسن في الفكر وحسن القصد التعبدي لكن لما خالف مقاصد الشريعة من رفع الحرج كانت هذه الموهبة مردودة.

5- **ما علم صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه كان يصوم النهار ويقوم الليل. فدعاه** وقال: "يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم

الليل؟ " فقلت: بلى يا رسول الله قال: "فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك – أي ضيفك – عليك حقا وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله، فشددت فشدد علي". قلت يا رسول الله إني أجد قوة قال "فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه" قلت: وما كان صيام داود عليه السلام؟ قال: "نصف الدهر" فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم[31]. وهو مثل سابقه وهذا الأمر قد تعدد مرارا في حياته صلى الله عليه وسلم حيث برزت مواهب الصحابة الفكرية والتعبدية فهذبها ونقحها صفاها بعامل الشرع ووازع الدين وبت الحكم في القضية بنفي الرهبانية في الإسلام[32] كالتبتل والاختصاء، وما أشبه ذلك مما كانت الرهبانية تتكلفه وتبتدعه، وضعت عن هذه الأمة"[33]. لأن معايير الموهبة الفكرية التي ينتحل من خلالها أهلها السلوك الروحي والرياضة النفسية تأباها وتصد عن مقاصدها الأصلية ومنها تقويم السلوك بالقيم الشرعية وفق السنة النبوية.

6- **فلنتأمل من ثمار الموهبة التي تساير التربية العقلية النبوية وما عاد عليها من البركة ما يرويه عروة:** أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه دينارا يشتري له به شاة، فاشترى له به شاتين، فباع إحداهما بدينار، وجاءه بدينار وشاة، فدعا له بالبركة في بيعه، وكان لو اشترى التراب لربح فيه [34].وباب المعاملات مواهبه لا تكاد تنحصر لما فيها من المكايسة والفطنة، وهي غير أكل أموال الناس بالباطل كالربا والغرر والغش والخديعة ولنضرب عليه مثالا: روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلا ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم، أنه يخدع في البيوع، فقال: "إذا بايعت فقل لا خلابة" فكان إذا بايع يقول: لا خيابة[35]. فكان يغبن في بيعه لما يلقاه من مواهب الناس التي حصل له بها ضرر فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم لتقويم موهبته في بيعه وحفظ ماله من الضياع فكان رضي الله عنه يتعامل بالخيار. قال التوربشتي: "لقنه النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول ليلفظ به عند البيع ليطلع به صاحبه، على أنه ليس من ذوي البصائر في معرفة السلع ومقادير القيمة فيها

ليرى له كما يرى لنفسه، وكان الناس في ذلك الزمان إخوانا لا يغبنون أخاهم المسلم، وينظرون له أكثر ما ينظرون لأنفسهم". أهـ[36].

7- **أما فيما بعد النبي صلى الله عليه وسلم ظهر ذلك أشد وضوحا منذ زمن الوحي والنبوة** ودونك مواقف أبي بكر الصديق في قتال أهل الردة ومانعي الزكاة ومواقف عمر في خلافته من تغيير الآثار والمشاهد حتى يقطع دابر الشرك وموقف الحسن من الإصلاح بين الجماعتين وغيرها كثير. وفي ذلك بيان لميزات العقل الفريد للجيل الأول الذي صحب النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة التميز في شتى الأنحاء الفكرية والثراء العقلي الموهوب ومنهم نستخلص السمات الحقيقية لأهل الموهبة.

سمات الشخصية الموهوبة (المبدِعة وصانعة التميز):

أ- سلامة الاعتقاد وحسن السلوك وفق سلم القيم الدينية والإنسانية الموزونة بمقياس الفطرة، والتي من خلالها ينبثق العقل العامل في إبراز مواهبه الفكرية: وقد أمثل له بقصة أصحاب الغار الثلاثة فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال كل رجل منهم ما استشفع به من العمل الصالح، فذكر الأول بره بوالديه، وذكر الآخر: عفة بنت عمه وأرادها عن نفسها، فذكرته في نفسه فانصرفت عنها تائبا، وأما الثالث: فذكره حفظه لأمانة أجيره. وكلهم كان يقول: اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون "[37] والشاهد منه: ما تمتع به كل منهم من الاعتقاد الصحيح والهدي القويم والعبودية الحقة فاهتدوا ووهبوا الاحتكام إلى قاعدة التوسل بصالح الأعمال فكان بفضل الله تعالى فكاكهم ونجاتهم وسلامتهم[38]. قال العلامة ابن بطال في شرح البخاري: "كل من دعا إلى الله تعالى بنية صادقة وتوسل إليه بما صنعه لوجهه خاصا ترجى له الإجابة، ألا ترى أن أصحاب الغار توسلوا إلى الله تعالى بأعمال عملوها خالصة لوجهه، ورجوا الفرج بها..

فتفضل الله عليهم بإجابة دعائهم ونجاهم من الغار، فكما أجيب دعوة هؤلاء النفر، فكـــذلك ترجى إجابة دعاء كل من أخلص فعله لله وأراد به وجهه" [39]. هذا في الدنيا أما في الآخرة فقال الله تعالى: {**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (۞) فَإِنَّ الْجَنَّـــةَ هِـــيَ الْمَأْوَى**} [النازعات: 40، 41].

ومن ذلك ما عهد عن السلف من أقوال وأجوبة وقضايا ومواقف تنم عن قوة موهبة الفكر الذي أعطى الحل المناسب وخلص من أشد المحن التي يعترك فيها.. وهو المعبر عنـــه بقوة الوازع الديني الذي اصطبغت به تلك الأمة التي خلت وشهد عليها ما أثر من مناقب أهل زمانها، وقد صانوا أنفسهم من دوافع الغي ووازع الهوى وداعية الباطل[40].

فهذا الإمام شعبة بن الحجاج كان يقول: (كلّ من سمعت منه حديثاً فأنا له عبد)[41]. وقيل لمعتمر بن سليمان حدثنا، وعنده ابن المبارك فقال: (إنّا لا نتكلّم عند كبرائنـــا)[42]. وكان يحيى بن معين يقول: إنّ الّذي يحدث بالبلدة وبها من هو أولى بالتّحديث أحمـــق[43]. ولكن ابتليت الأمة بخلف جاء من بعد هؤلاء (44) هم من أهل القبلة ممن يعتد بعقله ويغتر بفكره الذي انتظمته الأهواء والأذواق، فيظن أنه أتى بالجديد أو عمل في دائرة المتغيرات لا الثوابت والأصول، فيأتي بكل شاذ غريب مستنكر. قال عبد الرحمن بن مهدي: «لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشّاذّ من العلم»[45] وقال إبراهيم بن أبي عبلة: «من حمـــل شـــاذّ العلماء حمل شراً كثيراً»[46]. وقد حذر الأئمة من هذا القسم من الناس لأن ضررهم أكثر من نفعهم لما تجره مواهبهم الفكرية إلى الفتن والأهواء قال العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه. وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم"[47]. ولعل منهم من ادعى موهبة أكل الحيات واستخراج العفاريت ونحوها، وإنما هذا من قوم يحترفون الدجل والخرافة والعب بعواطف الســـفهاء والضـــعفة وجهلة من العوام.

وبالمقابل في منطق أهل التحقيق تجد أن من بلغ منزلة من العلم والاجتهاد غايته يحمله ما بلغه من الدليل ودقة الاستنباط أن يخالف الأئمة قبله وفي زمنه وذلك غالبا عند تحقيق المناط للمسائل وهذا في الواقع لا يعد مخالفة لهم ولا خروجا عن اتفاقهم إن هم اتفقوا، ومثاله ما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية وقد وهب من العلم بالخلاف والتحقيق فيه ما لا يخفى على ممارس للعلم، فحمل القوم على معاداته وحاربته حتى نال من البلاء ما نال منهم، قال الأستاذ النّدوي في بيان أسباب المعارضة لشيخ الإسلام: (وسبب آخر لمعارضته هو بعض التحقيقات وترجيحاته الّتي ينفرد بها، وينشق فيها عن جماعة الأئمّة الأربعة والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان، إن هذه التّفرّدات لا تبعث وحشة واستنكاراً في نفوس من لهم إطلاع واسع على تاريخ الفقه والخلاف وأقوال الأئمّة والمجتهدين ومسائلهم، إنّهم يعرفون جيّداً أنّ تفرّدات الأئمّة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جُمعت تتضاءل أمامها هذه التّفرّدات وتبدو لهم كلاشيء، ويتضعضع اعتقادهم بالتّفرّد الّذي يعتبرونه مضاداً للقبول ومنافياً للحق. وأما الّذين لا يملكون نظرة واسعة حول الخلاف أو أنهم يسمحون بالتّفرّد والشّذوذ للمتقدّمين لكنّهم لا يرون في ذلك مجالاً للمعاصرين مهما بلغوا من التّفوّق والكمال شأواً بعيداً فقد أصبح التّفرّد أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضّلال ودليلاً على خرق الإجماع)[48].

وقد يعترض علينا بأن أهل الكتابين اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين في أوج التطور الحضاري والتكنولوجي فما القول حينئذ: فالحاصل أن السبر المحض لتصرفات الناس وتبرير المواهب الفائقة لحد الخيال بغض النظر عن ديانتهم وانتماءاتهم ترى ما فيها من الصلاح راجع على أحد أربعة أمور: أولها: أن الأمم بمختلف أطيافهم الفكرية والعقدية مندرج تحت مبدأ الإنسانية حيث إنه ما دام هذا الكائن إنسانا يعامل كعنصر محترم ولذلك أسسوا منظمة حقوق الإنسان وجرموا كل من يعود عليها بالفساد بمختلف مراتبه. وهو قانون غربي طبعا والسائل يسأل هل هذا المبدأ شامل لكل إنسان أم أن الواقع يحكى غيره؟ والجواب أن العالم الغربي ينظر في هذا القانون أنه يخدم المصالح الشخصية ومن يعارضهم من

ضعفاء الدول وخاصة شعوب العالم الثالث والإسلامية من بخصوص الخصوص فالأمر يختلف في تطبيقه بتهمة الإرهاب والخيانة و و و. فهل الصلاح في تصرفات الكفار على حقيقته {**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** } [محمد: 1] ؟

والجواب هو الثاني: حيث يكمن سر القضية أن ما يبدو من الصلاح فهو أمر ظاهري صوري لا جوف له ولا لب حيث لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فقراراتهم في ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب وخاصة إذا اختص الأمر بالتبشير تنصيرا وتهويدا، وما زالت تجر الأمة الإسلامية ويلات الخداع والمكر المدبر بليل فأي صلاح في تصرفات الناس بعيدا عن دين التوحيد والعقيدة الصحيحة والسنة قال سبحانه {**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**} [الفرقان: 44]. ونمثل له بالصليب الأحمر الغربي وما يقدمه من خدمة إنسانية للعالمين ولكن من يؤمه ويقرر تصرفاته أفلا نعقل أم زاغت الأبصار، ونرجع قليلا إلى تصرفات الصلاح المزعومة في جهود المستشرقين في دراسة العلوم الشرعية المختلفة فهل نفع هذا أم أنهم ما سعوا سعيهم إلا لتبرير مواقفهم وقضاء أوطارهم. ما بال طالب الحديث يوفر على نفسه الجهد الكبير في تخريج حديث من المعجم المفهرس لجماعة من المستشرقين[49] فقربوا على أنفسهم السنة وإن كان ظاهر الخدمة جليلا فباطنه يتكتم على أمر مبيت. ولا يتم اندمال جراح الأمة إلا برجوعها إلى دينها وتقدير المصالح وتكثيرها بتصرفاتها وأسلمتها بحق.

والثالث: قد (أقول: قد) يكون من بقايا الديانات السابقة فيرجع تصرفهم إلى حكم دين سماوي انغمس في طباعهم ومازج فطرهم فكان إلهاما جبليا وسلوكا ممتدا محمودا موروثا من أسلافهم أخذ جانب العادة والعرف لا جانب الديانة، وعليه فما من موقف إنساني وأخلاقي قائم على مبدأ الصلاح ونفي الفساد يتخذونه إلا وجد في الدين ما يستدل به عليه فإن الأنبياء بعثوا لتقرير الصلاح وتغيير الفساد فهو المقصد العام للتشريع.

ومن أمثلتنا عليه ما كان في عهده صلى الله عليه وسلم، "فقد انتفع بحفر الخنـــدق في غزوة الأحزاب، مع أن ذلك خطة عسكرية كانت للفرس، أخبره بها سلمان فأخذ بها، و لم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار".

ب – سلوك الجادة واتخاذ الأسباب وتعلق مسبباتها بها واستعمال السنن الكونية وفق ضابط التسبب

وتطوير الأساليب الجارية على ناموس الخلق، وعليه يكون جوابنا على الوجه المعترض بـــه آنفا في الوجه الرابع. وقد يزاحم هذا في النظر التعقيد العمراني ومخلفات الفوضـــى الـــتي تفرزها المكونات الحضارية التي لا تمت إلى القيم الإنسانية والتعاليم الإسلامية بصلة قـــال العلامة الأمين الشنقيطي: "وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفـــر والإفـــلاس بالرجل وقد قدمنا طرفا نافعا في كون الدين لا ينافي التقدم المادي في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**}[الإسراء: 9]، فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وقد عرف في تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم كانوا يسعون في التقدم في جميع الميادين مع المحافظة على طاعة خالق السموات والأرض جل وعلا"[50]. لأن الموهوب لا بد له أن يفر من المدنية الزائفة ومقومات البيئة التي انبنت عليها شـــعارات حضارية دعت إليها مؤسسات أجنبية وغربية تكر على أمتنا بالفساد. قال الشيخ السعدي: "ولا يخفى أنه لا يتم التحرز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقي لشرورها إلا بالوقوف على مقاصدهم ودرس أحوالهم وسياساتهم، وخصوصاً السياسة الموجهة منهم للمسلمين؛ فـــإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع وعدم الوفاء واستعباد الأمم الضعيفة بكـــل وسائل الاستعباد؛ فجهل المسلمين بها نقص كبير وضرر خطير، ومعرفتها والوقوف علـــى مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفع عظيم، وفيه دفع للشر أو تخفيفـــه، وبـــه يعـــرف المسلمون كيف يقابلون كل خطر"[51]. وإذا غفلوا عن هذه المهمات فســـدت العقـــول وأفسدت موجودات الكون بدعوى العبقرية والموهبة التي لا تجارى، لأن "المجتمع الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدا لأنه يميت القلب ويقتل الموهبة ويحدد النشاط، ويحرف الســـعي عـــن

أهدافه النبيلة"[52]. ولا يزال اليهود أهل المكر والخديعة وانتحال المناسبات للمكر بهذه الأمة عملا بالعقل ضد مساره واستخداما للمواهب الفكرية ضد النظام العام.

ج – الشغف في تحليل الأفكار وتفتيت حيثياتها والوقوف على ملابساتها: وهذا من أظهر سمات الموهوب، وإن القادة الغزاة في عصر الفتوحات لكان واضحا فيهم مثل هذه الأمارات التي كانت سببا بعد عون الله تعلى على إنجازاتهم ولا أدل عليه من دهاء على بن أبي طالب وخالد بن الوليد ورفقتهم رضي الله عنهم أجمعين في إنجازاتهم. قال علي الصلابي: "إن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه كان يمتلك موهبة قيادية ومعرفة بالنفوس والأوضاع القائمة، وأنه أقال الولاة ليختار سواهم حسب ما يراه ملائمًا لتحقيق الانسجام الإداري والسياسي بين الخليفة وأعوانه.."[53].

د – الفراسة وتتبع منابع الحكمة وتحصل للعبد حسب قوة الإيمان: قال أبو شجاع الكرماني: "من عمر ظاهره بإتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وكفَّ نفسه عن الشهوات وغض بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال لم تخطىء له فراسة". قال شيخ الإسلام: "والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب"[54]

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، ثم قرأ: {**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**} [الحجر: 75][55] وفيه زيادة لفظة من حديث ثوبان عند ابن جرير: "وينطق بتوفيق الله". وقد يعبر عنها أرباب التصوف بالمكاشفات الصحيحة والإلهام، وهو اصطلاح ليس محل الكلام عنه. وإن لهذا النوع من المواهب لأهل الحديث ونقاد علله أوفر الحظ والنصيب. ومن الآثار في ذلك: ما كتب عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه به إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المتعظين فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة[56].

وقال عبد الله بن مسعود أفرس الناس كلهم فيما علمت ثلاثة: العزيز في قوله لامرأته حين تفرس في يوسف {**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** } [يوسف: 21]

وصاحبة موسى – عليه السلام – حين قالت { **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**} [القصص: 26] وأبو بكر الصديق – رضي الله عنه – حين تفرس في عمر – رضي الله عنه – واستخلفه[57].

ومن الأمثلة على فراسة الصحابة رضي الله عنهم: ما وقع للعباس في هذا الحديث: عن الزهري قال: أخبرني عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، وكان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تيبَ عليهم أن عبد الله بن عباس، أخبره أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن " كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئا "، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت"[58] قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وهذا من قوة فراسة العباس رضي الله عنه"[59]. والتفرس موهبة في ذاتها.

هـ – ملازمة الأكابر والشيوخ ومدارسة الأقران ومذاكرة الخلان: ولا يزال أهل الحديث يلاحقون الفهوم والألباب بذلك ليحي فيهم العلم بمذاكرته ويتيسر لهم العمل به، ومن أجل أهل الحديث الإمام البخاري فقد عرف بمثل هذه الخصال، وهذه موهبة ربانية تعد إرهاصا لتربية الإمام البخاري على تحصل علم الحديث والتحقيق فيه حتى أضحى أمير المؤمنين فيه. قال محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: "ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب.فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين، أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة.."[60] وقال:

"سمعت العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل، كان لا يدع أصلا ولا فرعا إلا قلعه"[61].

ولا أدل عليه من إتيان ثمار الصحبة للعلماء ما عمله الإمام مسلم في صياغة صحيحه وترتيبه. "قال الدار قطني:

لولا البخاري ما ذهب مسلم ولا جاء وقال الخطيب إنما قفيَ مسلم طريق البخاري ونظر في علمه وحذا حذوه ولما ورد البخاري نيسابور في آخر عمره لازمه مسلم وأدام الاختلاف إليه"[62] كأن المواهب تتوالد بين المتلازمات، وإن من بركة هذه الصحبة حمل الطالب على الأدب وتوقير الأئمة ومعرفة الفضل لأهله. قال أحد السّلف: المتواضع في طلاّب العلم أكثرهم علماً، كما أنّ المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً [63]..

وإنه ليحمل على الإنصاف وهو الزينة والحلى الذي يرصع فكر العاقل الموهوب، وإنه ليحمل العاقل على الإنصاف من نفسه أولا قبل أي شيء في أي شيء، قال سحنون: "كان مالك وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمّد بن إبراهيم بن دينار يختلفون إلى ابن هرمز فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز يجيبهما وإذا سألته أنا ومن معي لم يجبنا فسألته عن ذلك، فقال: أوقع ذلك في قلبك يا ابن أخي؟ قال: نعم، قال: إنّي قد كبرت سنّي ورقّ عظمي وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الّذي خالطني في بدني، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان إذا سمعا منّي حقّاً قبلاه، وإذا سمعا خطأً تركاه وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه."قال محمّد بن حارث: هذا والله هو الدّين الكامل والعقل الرّاجح، لا كمن يأتي بالهذيان ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن)[64] وكان سفيان بن عيينة يقول: (تلومونني في عليّ بن المديني، لما أتعلّم منه أكثر ممّا يتعلّم منّي)[65] وقال أيضاً: لولا ابن المديني ما جلست وهو من شيوخه [66]،. وقال ابن عمّار: رددت على المعافى بن عمران حرفاً في الحديث فسكت، فلمّا كان من الغد جلس في مجلسه من قبل أن يحدّث وقال: إنّ الحديث كما قال الغلام، قال: وكنت حينئذٍ غلاماً أمرد ما في لحيتي طاقة[67]. وقال إسحاق بن راهويه: (الحقّ يُحبّه الله، أبو عبيد أفقه منّي وأعلم منّي، أبو عبيد أوسعنا علماً

وأكثرنا أدباً، إنّا نحتاج إلى أبي عبيد وأبو عبيد لا يحتاج إلينا)[68] واستعمال وتقبل النقد الهادف البناء والفعال: لأن ذلك يدل على وفرة العقل وحب التحقيق قال يحيى بن معين رحمه الله وقد جاءه شابّ بحديث موضوع: (إنّ للعلم شباباً ينتقدون العلم)[69].

ولكن يشترط أن يكون بالأدب والعلم بأصول الجدال والمناظرة وقصد بيان الحق وإلا كان مذموما: قال أبو عبد الله البلخي: أدب العلم أكثر من العلم. وقال الإمام عبد الله بن المبارك: لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب. ويروى عنه أيضا أنه قال: طلبت العلم فأصبت منه شيئا، وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا.وقال بعض الحكماء: لا أدب إلا بعقل، ولا عقل إلا بأدب. قال ابن المبارك: (سُئل عقيل: ما أفضل ما أُعطي العبد؟ قال: غريزة عقل، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأدب حسن، قال: فإن لم يكن؟ قال: فأخٌ شفيق يستشيره، قال: فإن لم يكن؟ قال: فطول صمت، قال: فإن لم يكن؟ قال: فموت عاجل).قال أبو عليّ الثّقفي: (لو أنّ رجلاً جمع العلوم كلّها وصحب طوائف النّاس، لا يبلغ مبلغ الرّجال إلاّ بالرّياضة من شيخ أو إمام أو مؤدّب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناهٍ، يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات)[70].

نتائج البحث:

الخلاصة أن الموهبة ربانية المصدر يهبها الله تعالى من يشاء بصنائع التميز عن غيره، ومن مرادفاتها العبقرية وهي ليست من النبوة في شيء[71]، ومن أوتيها فإنها كرامة ربانية فليشكر الله تعلى على جميل هبته، وأن الموهبة محل تقويمها العقل السليم الذي ينمو إدراكه الفياض بالمنن والعطاء عن سلامة المعتقد، وإلا فلتوفر الدافع وقيام المقتضى الأسباب وتعلق مسبباتها بها وهو أمر لا ينفك عن الوجود والسنن الكونية، كما أن الموهبة تحتاج إلى تهذيب جاء استصلاحه من الشريعة وتحصيل المقاصد من حفظ العقل، وأن للموهبة معايير وضوابط تسلمها من الآفات والضرر منها ديني ومنها نفسي ومن اجتماعي بيئي وغيرها.

وأردت في الختام أن أشير إلى واجب علماء والأمة وقياداتها نحو الموهوبين: وذلك بـ"تمكين كل ذي موهبة وقدرة من الانتفاع بموهبته وقدرته، فقد قرر فقهاء الإسلام أن

كل ما يقوم عليه العمران من هندسة وطب وفرحة للأرض وإقامة المصانع والجهاد في سبيل الله تعالى دفعا للأذى وحماية للحوزة... واجب على الأمة، وهو واجب على وجه الخصوص على من كان قادرا بالفعل على واحد من هذه الأمور، وواجب على العموم على الأمة ممثلة إرادتها في ولي أمرها والقائمين على شئونها. ومعنى هذا أنه يجب على الدولة الإسلامية تشجيع الكفايات وتنمية قدرات أبنائها ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب"[72]. وقد علمنا من ديننا أن "الإسلام يتيح الفرصة لكل ذي موهبة وقدرة من الانتفاع بموهبته وقدرته، وفي هذا ما يحقق النمو للفرد وللمجتمع معًا، وبالنسبة للعاجزين عن الكسب بسبب الشيخوخة أو المرض أو الأنوثة أو الصغر أو اليتم، فإن الإسلام يؤمن لهم حياة كريمة عزيزة عن طريق عدة مصادر منها: الزكاة المفروضة والنفقات الواجبة والكفارات والصدقات ثم هناك بيت مال المسلمين وللفقير حق في هذا المال يعطى منه بانتظام، ويواجه الإسلام مشكلة التمايز والصراع الطبقي حيث يوضح حقيقة أن الإنسان هو أكرم المخلوقات، وأن الله قد كرمه: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**} الآية. [الإسراء: 70]...."[73]. فلزم استغلال هذا التكريم بحفظ عقول الأمة من كل فساد فكري غربي دخيل، لأن الأمة تسمو بقدر ما تملكه من الأفكار، وهي منطوق المواهب التي تبرز من خلالها مكانة الأمة على غرار غيرها وأعداؤها الذين يتربصون بخيرة شبابها هم أول مقصود يجب الحذر منه والتحذير منه. كما لا بد من تبني مواهب النوابغ وتكريس المؤسسات إلى تطويرها وتقنينها بميزان الشريعة الغراء بعيدا عن الأهواء وملهيات الفتن. والله تعالى أعلم وصلى الله على نبينا محمد الأمين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

الهوامش:

1- رواه مسلم في صحيحه(4/ 2363) عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون، فقال: «لولم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصا، فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا، قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»وبلفظ نحوه عند أحمد في المسند (ح12544) وابن ماجه(ح2471) .

2- المفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى لعلي بن نايف الشحود (65/6)

3- سيتم تخريجها والحديث عنها في محلها من البحث.

4- تنبيه: لا أعني بالفكر هنا الفكر الذي يراد به إعمال العقل ونظره في الواقعات مجردا عن النصوص الشرعية والذي غالبا ما يكون من نتاجه أصول الفرق الكلامية. وإنما أريد بالفكر حركة النفس في المعقولات وهو الذي يقابل التخيل وهو حركة النفس في المحسوسات، قال في المراقي: والنظر الموصل من فكر إلى... ظن بحكم أو لعلم مُسجلا

ينظر في حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع (1/ 186) .نشر البنود شرح مراقي السعود لعبد الله العلوي (ج1/ص58)

5- مشارق الأنوار على صحاح الآثار لعياض اليحصبي(297/2) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد بمساعدة فريق عمل (3/ 2500) .

6- وتمامه: فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيدي وأنا غلام، فأتى بي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن أمه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا، قال: «ألك ولد سواه؟»، قال: نعم، قال: فأراه، قال: «لا تشهدني على جور» قال البخاري: وقال أبو حريز عن الشعبي، «لا أشهد على جور»[صحيح البخاري (171/3ح2650. صحيح مسلم (1243/3ح1623. مسند أحمد (314/30 ح18363].

7- ديوان ابن حويس (ص80) . دواوين الشعر العربي على مر العصور (35/ 9) .

8- المرجع نفسه (59/ 252) .

9- الجيم لأبي عمرو إسحاق الشيباني (3/ 290) الاشتقاق للأزدي(ص: 518) .

10- معجم ديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي.حققه: دكتور أحمد مختار عمر. وراجعه: دكتور إبراهيم أنيس (3/ 224) والمعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) (2/ 1059)

11- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق: سعيد المندوب (3 /ص 38) وقال بعده: "قلت: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول هذا شيء ليس في قدرة الإنسان وليس كما ظننت من الإشكال والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد". لأن التوفيق بعد جمع العلم محض المنح الربانية لمن يشاء من العباد.

12- يرى (فريد وجدي) يرى أنها (هبة إلهية ثمرتها فوق القدرة البشرية يمنحها الله لبعض الأفذاذ لتبرز على ألسنتهم أو على أيديهم في أمور لا يستطيع العقل البشري أن يستقل بإيجادها. نقلا من أعلام وأقزام في ميزان الإسلام (1/ 259) .

13- قال المفكر الشيخ محمد الغزالي في كتابه قذائف الحق (ص: 95) –يرد على عبد المنعم ماجد مما جاء في كتاب له أسماه " التاريخ السياسى للدولة العربية " فى صفحة 198 من الجزء الأول يقول فيه: " وفجأة في سن الأربعين يملك محمد موهبة النبوة "– "وهذا التعبير غير لائق بجلال النبوة، فإنها ليست موهبة

فطرية كالمواهب الأخرى، ولكنها اصطفاء من الله للأخيار الذين اجتباهم من عباده المخلصين" وقد اختلط هذا المصطلح بالنبوة على كثيرين كالعقاد مثلا...

14- موسوعة الغزو الفكري والثقافي وأثره على المسلمين لعلي بن نايف الشحود(11/ 87)

15- معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 2500)

16- تعريف العقل ومراتبه: جاء في قواطع الأدلة في الأصول للسمعاني(1/ 27-28) قوله مختصرا: "وقد قيل أنه أصل لكل علم وكان بعض أهل العلم يسميه أم العلم. وقد أكثر الناس الخلاف فيه قبل الشرع وبعده ومن كثرة اختلاف الناس فيه قال بعضهم:

سل الناس أن كانوا لديك أفاضلا عن العقل وانظر هل جوات محصل

وقال المتقدمون: أنه جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات قالوا: وهذا فاسد لأنه لو كان جوهر لصح قيامه بذاته فجاز أن يكون عقل بلا عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فحين لم يتصور ذلك دل أنه ليس بجوهر وأما عند كافة المسلمين فهو نوعا من العلم يدخل في جملة أقسامه. واختلفوا في حقيقته على أقاويل شتى وقد روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال آلة التمييز. وقال بعضهم العقل بصر القلب وهو بمنزلة البصر من العين قاله أبو الحسن عن ابن حمزة الطبري. وقال بعضهم هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات وقال بعضهم معنى العقل هو العلم لا فرق بينهما لأنه لا فرق عند أهل اللغة وأرباب اللسان بين قولهم علمت وعقلت فيستعملون العلم والعقل على حد واحد في معنى واحد ويقولون هذا أمر معلوم ومعقول. ويقولون اعلم ما تقول واعقل ما تقول. وفي استعمال العلماء يقع على اسمه قدر من العلم يميز من قام به بين خير الخيرين وشر الشرين ويصح منه بحصوله به الاستشهاد بالشاهد على الغائب ويخرج به عن حد المجانين والمعتوهين ويصح معه التكليف والخطاب. ويمكن أن يقال أنه قوة ضرورية للوجود بها يصح درك الأشياء ويتوجه تكليف الشرع وهو ما يعرفه كل إنسان من نفسه ولا يستدل عليه بغيره لأن الاستدلال يفتقر إلى علم ينتظر فيه وأصل يعتمد عليه ولو كان غيره دليلا عليه لكان مكتسبا لا ضروريا ثم أن العقل تختلف مراتبه. فأولها: إدراك ما يدرك بديهة وعلم ما يعلم بأول الرأي وأعلاها إدراك الغائبات بالوسائط..

والثاني: عقل مستفاد وهو الذي تتقوى به تلك القوة وقد يحصل باختيار من العبد ويحصل بغير اختيار منه.

17- ونذكر شيئا من أنواع المواهب الفكرية: مثل:

1- **العلم الشرعي أو الكوني والهدي والسمت الذي هو ثمرة للعلم:** وهو من أجل المواهب الفطرية التي يرفع الله تعالى بها من يشاء من عباده. جاء في ترجمة العلامة أبو يعلي محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء: "من ضبط العلوم بحسن بصيرة وإتقان وتدقيقا في الكشف عن غوامض المذهب وخافيه والبيان عن معانيه وهو مع ذلك إلى حين وفاته مع كبر السن مجتهد دائب على التصنيف والتدريس مواظب ثم إصغاؤه مع هَذَا العلم الكثير إلى كلمة تستفاد من صغير أو كبير ولو قصد قاصد تعداد كتبه ومصنفاته.. ومعلوم ما خصه اللَّه تعالى به مع موهبة العلم والديانة من التعفف والصيانة

والمروءة الظاهرة والمحاسن الكثيرة الوافرة مع هجرانه لأبواب السلاطين وامتناعه على ممر السنين: أن يقبل لأحد منهم صلة وعطية ولم تزل ديانته ومروءته لما هَذَا سبيله أبية.وكانَ يقسم ليله كله أقساما فقسم للمنام وقسم للقيام وقسم لتصنيف الحلال والحرام. ولقد نزل به ما نزل بغيره من النكبات الَّتِي استكان لها كثير من ذوي المروءات وخرج بها عن مألوفات العادات فلم يحفظ عَلَيْهِ أنه خرج عن جميل عاداته ولا طرح المألوف من مروءاته" (طبقات الحنابلة لأبي الحسين ابن أبي يعلى (203/2)). فعدّ أبو الحسين والديانة موهبة وعطاء ربانيا اختصه الله تعالى به وحباه دون أهل زمانه. قال الفيلسوف أرسطوطاليس: "أيها الأشهاد العلم موهبة الباري والحكمة عطية من يعطي ويمنع ويحط ويرفع" (عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: 97)) . وقال أبو ذر سبط ابن العجمي: "واعلم أن الفقه في الدين نور يقذفه الله في القلب وهذا القدر قد يحصل لبعض أهل العناية موهبة من الله تعالى وهو المقصود الأعظم"(كنوز الذهب في تاريخ حلب (1/ 380)) .

2- **سرعة الجواب والتدقيق فيه وبداهته:** روي عن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعرا وروثا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد" (تفسير ابن كثير (197/1)) . وقد اشتهر الإمام الشافعي بالفراسة والدهاء وهو بمعنى الموهبة والتميز وله في تقنين العلوم الشرعية اليد الطولى وكتابه الرسالة دليل على وفرة عقله وسعة إطلاعه.

3- الشعر: "كان الشعر في الجاهلية هو الأداة الأقوى في التأثير على الرأي العام، واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الموهبة التي تميز بها بعض أصحابه استعمالا كثيرا، فلم يُبق شاعرا إلا وقد استخرج كل ما عنده في نصرة الإسلام والرد على خصومه والإشادة بانتصاراته. ومن هؤلاء حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي عُرف بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي كان يمتلك موهبة نادرة وقريحة حاضرة، تستطيع أن تخرج من أحرج المواقف بأقوى الكلمات. هذه الموهبة الفذة تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم بما يليق بها، ووظفها في مكانها الصحيح؛ فكانت الموهبة إبداعا؛ ففي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "اهجُ قريشا؛ فإنه أشد عليها من رشق النبل"، فقال حسان: "قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه" (يقصد لسانه)، ثم قال: "والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم"، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحتَ عن الله ورسوله"، وفي رواية أخرى للبخاري: "اهجهم – أو هاجهم- وجبريل معك". (المفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى (65/6))

4- البلاغة في الكلام والفصاحة في البيان وتأثيره في النفوس بالمواعظ والتذكير ذو قدرة على الانفعال والتأثير: ومن اشتهر بذلك في السلف العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، قال عنه الإمام الذهبي: "كان رأسا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديها، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرا في التفسير، علامة في السير والتاريخ،

موصوفا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيها، عليما بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإنكباب على الجمع والتصنيف، مع التصون والتجمل، وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام، ما عرفت أحدا صنف ما صنف".(سير أعلام النبلاء (456/15)) . فلزم على دعاة اليوم أن يحذوا حذوه وأن يستوعبوا "الموهبة اللسانية والمقدرة البيانية، فالفصاحة والبلاغة مواهب وملكات، والتدريب يصقل هذه المواهب والمهارات ولا يوجدها، وأفصح الناس قاطبة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي" قال أبو عبد الله: ((وبلغني أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين أو نحو ذلك)) (تدريب الدعاة على الأساليب البيانية (ص: 356)) . والسبيل إلى حيازة ذلك بالدربة وتمكين اللسان من الأساليب الخطابية المتنوعة فيعزز "جانب الموهبة التي يمنحها الله للإنسان وذلك بحب الخطابة، والميل إليها والانسجام معها" (الخطابة الإسلامية (ص: 15)) .مع عدم إغفال المواهب العصرية بحديها فلا يعقل أن نخاطب الناس بما لا يفهمون أو لا تكاد تدركه عقولهم. وما دمنا نعيش حياة الانفتاح الثقافي والحضاري فإن الدعوة تحتاج إلى ثقافة حضارية شاملة مع امتلاك الوسائل التي يمكن من خلالها توصيل مبادئ الحق والخير على الناس على اختلاف مشاربهم وأفكارهم، وهو ما يفرض على الدعوة الإسلامية أن تكون مجالا رحبا لإفراغ الطاقات واستيعاب المواهب، وأن تمتلك فقه الصعود للمعالي من خلال خطة معرفية ذات أبعاد حضارية.وإذا كانت الفضائيات والمسرح والفنون والسينما والرياضة.. إلخ قد أصبحت حواس جديدة للبشرية تتلمس بها الأفكار، وتسترشد بها في حياتها؛ فإن الدعاة يحتاجون إلى أن يكون لهم نصيب وافر منها؛ لأن الداعية الذي يمتلك موهبة الكلام والقدرة على التعامل مع وسائل الإعلام يتجاوز تأثيره الحدود، ويخترق بما يمتلكه من الحق والمفاتيح (المواهب) القدرة على وضع هذا الحق في القلوب والسلوك بعد تحطيم هذه الأقفال التي عليها. (المفصل في فقه الدعوة (65/6)) .

5- " أما المواهب والقدرات العنيفة والظريفة والماكرة فتعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم بحكمة بالغة، ووظفها في المجال اللائق بها ولم يهدرها، ومن نماذج ذلك: الصحابي عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه الذي كان فتاكا في الجاهلية؛ فأصبح بعد إسلامه رجل المهام الخاصة والعمليات الخطرة، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله في سرية بمفرده، بل تعجب النبي صلى الله عليه وسلم من قدرته على النجاة من المواقف المهلكة، وأخبره أنه ما أرسله مع جماعة إلا قُتلوا وعاد هو إليه.

أما الصحابي نعيم بن مسعود الغطفاني رضي الله عنه الذي أسلم أثناء غزوة الخندق وفي ظروف عصيبة على المسلمين، والذي لا شك أنه كان يمتلك دهاء ومكرا قل نظيره، واستفاد النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الموهبة في شق التحالف بين اليهود ومشركي مكة، واقترب هذا الرجل بالدهاء من أن يكون جيشا؛ لأن توظيف الموهبة في مكانها الصحيح وتوقيتها المناسب قوة لا يستهان بها. أما الموهبة الظريفة التي تحمل النبي صلى الله عليه وسلم بعض تجاوزاتها؛ فهي موهبة الصحابي نعيمان رضي الله

عنه الذي كان يدخل السرور على نفس النبي صلى الله عليه وسلم بمواقفه الطريفة، والتي وصلت إلى حد بيع أحد الأحرار من المسلمين على أنه عبد، وذبْح جمل وتفريق لحمه، فتحمل النبي صلى الله عليه وسلم ثمنه ولم ينكر عليه.

6- **من أنواع المواهب الفكرية:** ما يدعى بـ "المعاريض" جمع معراض من التعريض وهي: التورية بالشيء عن الشيء(لسان العرب لابن منظور (183/7)). وعرفه الحافظ بأنه "كلام له وجهان يطلق أحدهما والمراد لازمه" (فتح الباري (594/10)) . قال شيخ الإسلام: "وهي كذب باعتبار الإفهام وان لم تكن كذبا باعتبار الغاية السائغة" (مجموع الفتاوى (223/28) . وبذلك افترقت مع الكذب والكتمان. كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس الكاذب بالذي يصلح بين الناس فيقول خيرا أو ينوي خيرا ". (معرفة السنن والآثار للبيهقي (14/ 318) السلسلة الصحيحة للألباني رقم545(ج85/2)) . ومما ورد فيه من الآثار ما جاء عن عمران بن الحصين أنه قال: "إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب" (السنن الكبرى للبيهقي (199/10) وقال: هذا هو الصحيح موقوف. قال ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (16/1) : "وقد روي «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» هذا ثابت عن إبراهيم النخعي. وروي مرفوعا وليس هو في مسند أحمد ولا الكتب الستة") . وقال عمر بن الخطاب: "ما يسرني أن لي بما أعلم من معاريض القول مثل أهلي ومالي" (- الآداب الشرعية والمنح المرعية (16/1)) . وروي عنه أنه قال: " أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب" (الأدب المفرد للبخاري (ص: 305)) . ويذكر عنه رضي الله عنه أنه قال: "عجبت لمن يعرف المعاريض كيف يكذب" (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (382/1)) . للسلف عدة أقوال في الباب. المهم أن هذا النوع من المواهب الفكرية قد يستعمل على وجهه عند الحاجة إليه إذ يلجأ إليه عند مضايق الأحوال كما حصل لإبراهيم الخليل وذلك فيما رواه البخاري (ح3358/ج141/4) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، اثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله {إني سقيم}[الصافات: 89]. وقوله: {بل فعله كبيرهم هذا} [الأنبياء: 63]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ-. وقد يخرج به عن الجادة، فالتحقيق أنه "لا تجوز المعاريض في استباحة الحرام... وإنما تجوز المعاريض اذا كان فيها تخلص من ظالم.. فإذا تضمنت نصر حق أو إبطال باطل... وهذه المعاريض ونحوها من اصدق الكلام.... والضابط ان كل ما وجب بيانه فالتعريض فيه حرام لأنه كتمان وتدليس". (إعلام الموقعين عن رب العالمين (233/3)). فالتعريض موهبة تجتمع مع الذكاء والفطنة حال الاضطرار وهي خير من الكذب لأنه موهبة رديئة قصد الشرع انتفائها من خلق المؤمن، وحمله على الكمالات تنزيهه من الدنيئات.

18- التوجيه الإسلامي للنمو الإنساني عند طلاب التعليم العالي لعبد الرحمن بن عبد الله الزيد (ص: 505) .

19- أصول النظام الاجتماعي للطاهر بن عاشور (ص41) .

20- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسوني (ص: 234) .
21- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث للصلابي(ص: 113) .
22- صحيح البخاري(ح2569/3/ 154) صحيح مسلم(ح386/1/544) .
23- صحيح البخاري (ح3584/4/ 195) .
24- الراويتان في ظاهرهما أنهما مختلفتان "والجمع بينهما أن المرأة عرضت هذا أولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم يطلب تنجيز ذلك" شرح النووي على مسلم (5/ 34) .
25- شرح النووي على مسلم (5/ 33) .
26- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (6/ 216) .
27- صحيح البخاري (ح3910/ 4/ 1517) صحيح مسلم(ح2129/4/2770) .
28- صحيح البخاري (ح131/ج1/ 38) وصحيح مسلم(ح2811/ج2164/4) .
29- صحيح البخاري (ح1150/ج2/ 54) .
30- وقفات مع أحاديث تربية النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته لعبد الرحمن بن عبد الكريم الزيد (ص: 153) .
31- صحيح البخاري (ح 217/4/1975) .
32- كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني(برقم3154/ج466/2) قال ابن حجر لم أره بهذا اللفظ، لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي: "إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة."
33- شرح السنة للبغوي (2/ 371) .
34- صحيح البخاري (ح3642/ج4/ 207) .
35- صحيح البخاري (ح2117/ج3/ 65) صحيح مسلم (ح1533/ج3/ 1165) .
36- شرح الزرقاني على الموطأ (3/ 510)
37- البخاري في صحيحه في مواضع(ح2272/ج91/3) مسلم في الصحيح (ح2743/ج4/ 2099)
38- قلت: إن في الالتزام بربانية الإسلام تحقيق لمعاني العقيدة الصحيحة وهو دليل قوة الإيمان وصدق العزيمة من المكلف، الذي نرى في تصوراته النقاء وفي تصرفاته الصفاء، وهو المراد بقولنا صحيح الاعتقاد سليم الإدراك، قال العلامة مبارك الميلي في كتابه الشرك ومظاهره(ص90) : "فلن تجد كالتوحيد أطهر للقلوب وأرشد للعقول وأقوم للأخلاق ولن تجد كهذه الأسس أحفظ للحياة وأضمن للسيادة وأقوى على حمل منار المدينة الطاهرة.."، حيث يُرزق الفراسة ويهتدي بمقتضى ذلك إلى صناعة الحلول وصياغتها في منظور مقنن دقيق ينم على صحة وصدق الفكرة في البناء والتنمية، ولا أدل عليه من حال الصحابة رضي الله عنهم وقد تمتعوا بسبب صحة الاعتقاد بصفاء أذانهم وقوة قرائحهم ورفعتهم في السلوك الخلقي مقتدين بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل مقال ومقال، فصونت بذلك النفوس من دوافع الغي ووازع الهوى وداعية الباطل. مع كون الأمية من خواص بيئتهم وقد غلبوا هذا الطبع بالاعتماد على الذاكرة وحفظ الصدر في تنمية الذكاء

وتزكية العقل على أرقى الوجوه، وإن كانوا يعيشون في وسط تنوعت أطرافه بعدة أعراق مختلفة معتقدات كاليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وما دفعهم ذلك لتبديل اعتقادهم أو الشط فيه حتى، وزادهم عدم التأثر بالثقافات الأجنبية والأطروحات الفارسية والرومانية أو المناهج الكلامية المبتدعة من بعد قوة وصلابة في دينهم. وأدى بداهة إلى التميز الحقيقي والحتمي. وبالخصوص في تمحيص المعاني من ألفاظ الوحيين التي جاء بها الشريعة. قال الزركشي في البرهان(180/2): "اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعه أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو وهو مصر على ذنب أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض". والخلق في هذا الباب قسمان: من وفقوا وعصموا فاهتدوا وآمنوا ومنهم من خذلوا فانحرفوا وضلوا وأضلوا ولكل من الفريقين تدبير وتصرفات ودرا الأمر بين الخير والشر وعد كل منها من باب المواهب توسع ظاهر. قال العلامة المفسر ابن كثير في تفسيره (1 / 124) : "وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم..". وما دام أن تصرفات أولي العقول والألباب قد يعتريها الصلاح والفساد بغض النظر عن توجهها العقدي وانتمائها الملي وانتحالها الطائفي وهو مراد الشيخ الطاهر رحمه الله بقوله في كتابه مقاصد الشريعة(3/ص194) : "فعلمنا أن المراد من الفساد غير الكفر وإنما هو فساد العمل في الأرض". حيث يمكن أن نستدل له بما يلي:

1- حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " أسلمت على ما أسلفت من العمل " رواه مسلم وأحمد وفي لفظ البخاري "أسلمت على ما سلف لك من خير " وهو جواب عن سؤال حكيم بن حزام حيث قال: يا رسول الله أرأيت أمورا كنت أتحنث أو أتحنث بها في الجاهلية من صلة وعاتقة وصدقة هل لي فيها أجر ؟ فدل على أن أهل الجاهلية من مشركي العرب وأهل الكتاب أنهم كانوا يعملون شيئا من الخير..

2- عادات العرب في الجاهلية وأخلاقهم المشهود لها بالحق والصلاح حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقرها وبارك فيها بأن أتمها فقال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وعند مالك في الموطأ بلاغا "حُسن الأخلاق " وعند البخاري في الأدب وأحمد والحاكم "صالح الأخلاق " وفي المعجم الأوسط (74/7) بسند فيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف، عن جابر بن عبد الله بلفظ: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال". [ومعناه صحيح: المقاصد الحسنة (ص: 180)] قال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في أحاديث الرسول (2/ 312) : "فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام قبله صلى الله عليه وسلم كانت معهم هذه الأخلاق وبقيت منها بقية بعث هو ليتممها ".

3- أخبر سبحانه أنه ما منع قبول العمل من المكلف إلى لأجل كونه كافرا فقال: "{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ } [التوبة: 54]"

4- أن التربية الأخلاقية الصحيحة تعطي النفس قوة إرادية تظهر آثارها في عمل الصلاح، وإن التلبس بضدها أو بفقدها أو عند غير أهلها خلل في صلاح العمل ظاهرا وباطنا وخاصة ما عند أرباب

الإرادات، وقد لا يخفى ما عليه الغرب من هذه الجوانب التي أحيت عزائمهم وأعلت هممهم في تربية نفوسهم ونشأ عليه الجيل كابرا عن كابر..

فبسبب ذلك جاءت الشريعة لضبط التصرفات وهداية العقل وتحرير المواهب من وصمه الهوى والدجل وسائر الفساد، قال العلامة الطاهر بن عاشور في أصول النظام الاجتماعي(ص10) : "ومن أجل ذلك لم تنزل الشرائع تضبط تصرفات الناس في هذا العالم بقوانين عاصمة من مغالبة الأميال النفسانية في حالة الغضب والشهوة ومواثبتها على ما تدعو إليه الحكمة والرشد والتبصر في العواقب، وتلك المغالبة تحصل عند التزاحم لتحصيل الملائم ودفع المنافر وعند التسابق في ذلك التحصيل والدفع.."، لأن الشريعة الإسلامية أقرت ما ينمي الفضائل ويطهر العقل والفكر من وصمة الجاهليات ويقدم برهانه ليستشهد به على التوحدي والعبودية المحضة وفي ذلك تبرز الواهب الفكرية التي تقيم هذا الأصل وتديم فروعه في إحاء العقلاء، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (11/ 347) : "ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات.." ومصداقه من كتاب الله تعالى قوله: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } [الأنعام: 115].

39- شرح صحيح البخاري لابن بطال (9/ 193)

40- ومن المهمات أيضا: **أولا:** سلوك سبيل القوامة والانتهال من منبع الريادة، ولا يكون إلا بالموضوعية التامة والافتقار إلى تحصيل آليات الارتقاء والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

- ثانيا: التخلي عن الرضا بما هو موجود اكتفاء به وتقليدا لما هو كائن، بل فزعوا إلى بلغة الكمال ومندوحة الطموح، لأن المرء ابن بيئته إذ لا بد له من المواكبة في سعي حثيث مستلهما مما صلح ومجتنبا التقليد والإمعة لباعث الامتياز. وهذا قيد ينقي الموهبة من الشوائب التي تتعلق بها من خلال مخالطة الذهن بالرواسب البيئية والأخلاط النفسية الدفينة كالحسد والغضب وغيره.

- ثالثا: إعمال الفكر وتخصيب البصيرة بتفاؤل وانشراح واقتناص للفرص في فضاء المستجدات وتعميق النظر بعيد الغور في المآلات اعتبارا بما بين أيدينا من المعطيات.أولا- التوسط والاعتدال في التفكير: مازال صلى الله عليه وسلم يقر ويؤكد منهج التوسط والاعتدال في كل شيء ويربيهم على تتبع القصد في الفكر والعمل لأنه عتبة البلاغ والدوام كما صح عنه عليه الصلاة والسلام فيما تريه عائشة رضي الله عنها قالت: "كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه" (صحيح البخاري (ح6462/ج98/8)) وعنها رضي الله عنها قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: "أدومها وإن قل" وقال: "اكلفوا من الأعمال ما تطيقون" (صحيح البخاري (ح6465/ج98/8)) .. ومن لازم ذلك ألا يأخذ على نفسه بميزان واحد من الجد العزم لأنه يؤول به إلى الملل والكلل فينقطع ويزول ولكن بشيء من الترفيه عن النفس بفسحة التعقل في غير العقد والأخذ من الملح وهو مصداق. ومنه ما رواه مسلم في الصحيح (ح2750/ ج2106/4) بإسناده عن حنظلة الأسيدي، قال: وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت؟ يا حنظلة قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا

رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات. وقال عبد الله بن مسعود: (إنّ لهذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإنّ لها فترةً وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها) (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (1/ 330) وقد بوب لذلك بقوله: "كراهة التحديث لمن عارضه الكسل والفتور حق الفائدة أن لا تساق إلا إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع".) . وقال أَبُو حاتم: "الواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عَلَيْهِ لأن بصلاح الملك تصلح الجنود وبفساده تفسد الجنود فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنب أقربهما من هواه وتوخى أبعدهما من الردى" (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للبستي(ص: 31)) .

– **رابعا:** الدقة وصرف النظر للمهمات من المسائل التي يعود نفعها في الدنيا والآخرة، لأن الموهبة لا بد لها من الواقعية وتمحيص بيئتها فإذا صرفت الهمم عنها إلى غيرها استعملت فيما لا فائدة منه أو فائدته قليلة بالنسبة لو صرفت إلى محالها التي لأجلها صارت موهبة فكرية رائدة: ومن ذلك ما قال الإمام البخاري لما سئل عن البلاذر، وهو دواء كانوا يظنون قديماً أنه يقوي الذاكرة وينشط الذهن على الحفظ، فأجاب الإمام البخاري، صارفاً لهم إلى البلاذر حقاً، حيث قال: "هو إدامة النظر في الكتب" (جامع بيان العلم لابن عبد البر (رقم2414)).

– **خامسا:** ترك العجلة في الأمور كلها مما يعطي للنفس طمأنينة وهدوءا يستقر معها الفكر ويبدع في عطائه الموهوب، قال السّبكي: "كان أبو عمر غلام ثعلب مؤدّب ولد القاضي أبي عمر، فأملى ثلاثين مسألة بشواهدها وأدلّتها من كلام العرب، واستشهد في تضاعيفها ببيتين غريبين جدّاً، فعرضهما القاضي على ابن دريد وابن الأنباري وابن مقسم فلم يعرفوهما، ولا عرفوا غالب ما ذكر من الأبيات، وقال ابن دريد: هذا ممّا وضعه أبو عمر من عنده. فلمّا جاء أبو عمر وذكر له القاضي ما قال ابن دريد، طلب من القاضي أن يحضر له ما في داره من دواوين العرب، فلم يزل يأتيه بشاهد لما ذكره بعد شاهد، حتّى خرج من الثّلاثين مسألة ثمّ قال: وأمّا البيتان فإنّ ثعلباً أنشدناهما وأنت حاضر فكتبتهما في دفترك، فطلب القاضي دفتره فإذا هما فيه، فلمّا بلغ ذلك ابن دريد كفّ عن أبي عمر الزّاهد حتّى مات" (طبقات الشّافعيّة الكبرى (3/ 191)).

41– جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص202

42– الجامع للخطيب 1/ 504

43– المصدر نفسه 1/ 499

44- قال ابن تركي: "وكلما بعد بالناس الزمان عن عصر النبوة والوحي كلما بعد عنهم الإشعاع الذي يبين لهم الصراط ويقودهم على الدرب المنير احتاجوا على وجه الحتم تقعيد الأصول وبناء الأسس العلمية للنظر في نصوص الوحيين. والمتأمل في عهد الخلفاء وزمن توافر الأصحاب رضوان الله عليهم الذين كانت لهم "المعرفة المباشرة بمقاصد مشرع العهد القراني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحاطتهم بأحكامه وان تفاوتت في التحديد والتفصيل". مناظرات (ص86)

45- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص (346)

46- الكفاية للخطيب البغدادي ص (140)

47- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية(ص: 25)

48- رجال الفكر والدّعوة خاص بحياة شيخ الإسلام للندوي ص119

49- علم تخريج الأحاديث لبكار ص141. وأصول التخريج ودراسة الأسانيد للطحان ص92

50- أضواء البيان للأمين الشنقيطي. (ج507/3) ومن تمام الفائدة رأيت أن أسوق كلامه في المسألة بتصرف يسير: أن الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية المذكورة تشتمل على نافع وضار: أما النافع منها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تضمنته من المنافع للإنسان أعظم مما كان يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو إهمالها بالكلية للناحية التي هي رأس كل خير، ولا خير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه، وذلك لا يكون إلا بنور الوحي السماوي الذي يوضح للإنسان طريق السعادة، ويرسم له الخطط الحكيمة في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة، ويجعله على صلة بربه في كل أوقاته. فالحضارة الغربية غنية بأنواع المنافع من الناحية الأولى، مفلسة إفلاسا كليا من الناحية الثانية. ومعلوم أن طغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بخطر داهم، وهلاك مستأصل، كما هو مشاهد الآن، وحل مشكلته لا يمكن البتة إلا بالاستضاءة بنور الوحي السماوي الذي هو تشريع خالق السماوات والأرض، لأن من أطغته المادة حتى تمرد على خالقه ورازقه لا يفلح أبدا. والتقسيم الصحيح يحصر أوصاف المحل الذي هو الموقف من الحضارة الغربية في أربعة أقسام لا خامس لها، حصرا عقليا لا شك فيه: الأول: ترك الحضارة المذكورة منافعها ومضارها. الثاني: أخذها كلها ضارها ومنافعها. الثالث: أخذ ضارها وترك منافعها. الرابع: أخذ منافعها وترك ضارها.فنرجع بالسبر الصحيح إلى هذه الأقسام الأربعة، فنجد ثلاثة منها باطلة بلا شك، وواحدا صحيحا بلا شك.فتعينت صحة القسم الرابع بالتقسيم والسبر الصحيح، وهو أخذ النافع وترك الضار.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل، فقد انتفع بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، مع أن ذلك خطة عسكرية كانت للفرس،.. وقد هم صلى الله عليه وسلم بأن يمنع وطء النساء المراضع خوفا على أولادهن، لأن العرب كانوا يظنون أن الغيلة- وهي وطء المرضع- تضعف ولدها وتضره.. فأخبرته صلى الله عليه وسلم فارس والروم بأنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، فأخذ صلى الله عليه وسلم منهم تلك الخطة الطبية.. وقد انتفع صلى الله عليه وسلم بدلالة ابن أريقط الدؤلي له في سفر الهجرة على الطريق، مع أنه كافر. فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة

الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمـــرد علـــى خالق الكون جل وعلا فتصلح لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية، فيأخذون منهـــا الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين، والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة ممـــا فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

51- رسالة وجوب التعاون بين المسلمين للشيخ ناصر السعدي ص: 13

52- الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (4/ 22)

53- علي بن أبي طالب للصلابي(2/ 54)

54- مجموع الفتاوى لابن تيمية (15/ 426)

55- سنن الترمذي تحقيق شاكر (ح3127/ج5/ 298) وقال: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هـــذا الوجـــه. وقال الطبراني في المعجم الأوسط (3/ 312) : لا يروى هذا الحديث عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد، تفرد به معاوية. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح1821)

56- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي (1/ 208)

57- الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (1/ 47-48)

58- صحيح البخاري (ح4447/ج6/ 12)

59- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (8/ 143)

60- سير أعلام النبلاء للذهبي (12/ 393)

61- المرجع نفسه (406/12)

62- النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي (1/ 167

63- الجامع للخطيب 1/ 300

64- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص450

65- الكفاية للخطيب البغدادي ص 360

66- طبقات الشّافعيّة الكبرى للسبكي 2/ 146

67- الكفاية للخطيب ص147

68- طبقات الشّافعيّة الكبرى للسبكي 2/ 154

69- الكفاية للخطيب ص147

70- طبقات الشّافعيّة الكبرى للسبكي 3/ 194

71- قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (186/12) : " النبوة موهبة من الحق تعالى، لا حيلة للعبد فـــي اكتسابها، بل بها يتولد العلم اللدني والعمل الصالح".

72- بناء المجتمع الإسلامي لنبيل السمالوطي (ص: 250)

73- المرجع نفسه (ص: 334)